"غَياهِبُ الزّمانِ ورِسَالَةُ مَاضٍ"

صباحٌ كصباحِ عادة الأيام المُشرقة، ولكن به شيءٌ مختلف عن كل يوم، فإشراقه مُحملٌ بعبائقَ نسمٍ ذات عبيرٍ نشاز، ورودُ الشوارع كرودِ المقابر وكأن من فيها قد أُبيد، غدت كبيانو في بلدةٍ كل من فيها مقطوعي الأيدي، مدينةٌ انقسمت نصفين من أنواع الناس؛ منهم من هلت الراحة علىٰ قلوبهم ومنهم من رقد الغمّ علىٰ صدورهم، ولكن الحياة فيها تسري بنمطٍ يسير.

•أيهم هيا بسرعة سنتأخر!

كان ذا نداءً من خدينِ أيهم في مَوعدهم المحدد ككل أسبوع، أيهم هو شابٌ في العشرين من عمره، متوسط الطول، شعره أسود بالكاد يصل إلىٰ أذنيه، وعيناه عسليّتان كعينان والدته تشعر بالحنين عند النظر إليهما، خرج أيهم إلىٰ صديقه والذي يُدعىٰ حُسين في نفس عُمره تَقريبًا.

وكالعادة توجها إلىٰ نفس الأماكن كأي يوم مثله، ولكن ذي المرة تأخرا خارج المنزل حتىٰ حل الليل وانتدح الظلام في المكان، كانا آفلين في الليل إلىٰ المنزل إذ يسمعان بصوتٍ آتٍ من زقاقٍ ضيقٍ بجانبهما؛ فرمق أيهم خدينه بنظرهِ ففهم ما ينوي إليه؛ فيبادله النظرة بتحذير وردع مما يفكر فيه، ولكن أيهم لم يهتم لنظراته، وهمّ بالدخول في النهج الذي سمع منه الصوت، يتلجلج خدينه في اللحاق به ثم يقرر تَبِعه خوفًا عليه وعند وصولهما لاحظا شيئًا يندرج من بابٍ في إحدىٰ الجدران؛ فيذهب خلفه مسرعًا؛ فيلِجان الإثنان في نفقٍ حالك الظُّلمة نتأ أمامهم عندَ عبورِهم ذاك الباب الضيق، أبطل حُسين حركته عند أولِ النّهج لينادي عليه كي لا يكملا المسير، ولكنها مناداةٌ بلا جدوىٰ، أمّا الآخر فقد وصل إلىٰ منتصف النفق ورغبتهُ في اكتشاف ما وراء ذاك الشيء المجهول تزداد أكثر فأكثر.

وبعد ثوانٍ قليلة وجد بصيصُ النور يظهر أمامه ما إن رصدتهُ عيناه حتىٰ بدأ بالركض نحوه، وعندَ وصوله أسرع بالنتوءِ منه ليرىٰ ما كان ينتظره، إذ بقريةٍ صغيرةٍ معالمُها تبدو واضحةً ومألوفة له، بيوتٌ متراصة بجانب بعضها البعض، مبينةٌ بالطوب اللبِن وأسقُفها معدةٌ من الخشب، قرية بسيطة جدًا أناسُها بسطاء، تُشعرك عند رؤيتك لها أول مرةٍ أنكَ تعيشُ في أيام الجاهلية، تُجار دارِجون في الشوارع يكسبون قوتَ يومهم، كان المكان مألوفًا لناظريه جدًا ولكن مجرد تصديقه لما آل إليه تفكيره كان يُضحكه من نفسه، فكيف لما في خاطره أن يكون، قطع تفكيره صوت نحيب من إحدىٰ الجوانب فيمّم نَحوه، فوجد صبيّا مقترِبا لسن العاشرة يبكي، فجلس بجواره وربّت علىٰ كتفه ثم قال:

•ما بكَ يا فتىٰ؟!

فرفعَ الصبيُّ رأسه إليه ثم قال:

•استهلكني حال أهلي، وما رفَدنا إليه.

وما إن رفع الصبي رأسه ليرىٰ ملامحه التي يَحفظها حفظًا، حتىٰ تملكه الذهول وعدم التصديق، ليسأَل نفسه:

-هل ما أراه صحيح!

وهل ما تناهىٰ إليه فكري صحيح!

لا يعقل!

فأخذ الصبي ينادي عليه عندما شرد في أفكاره، فانتبه إليه وقال له:

•ما هو حال أهلك الذي أتعبك ؟!

سأله وهو يعلم الإجابة أكثر منه، فرد الصبي قائلًا:

•لم يعد الإجتماع فيها مهمّا كالسابق، بات كلٌ منا في حاله، اشتقت لعائلتي القديمة.

هنا تأكد أيهم أن ما فهمه صحيح، ورغم صعوبة تصديق ما يمر به في ذي اللحظة إلّا أنه أكمل الحديث قائلًا:

•حسنًا اهدأ قليلًا وتعالىٰ لنتحدث في ذا الأمر.

فقال له وهو يبتسم :

•هل ستُآزرُني ليجتمع شمل العائلة من جديد!

•بالطبع سأفعل.

سعد الصبي من قوله ودعاه لبيته، وعند وصولهم قال في نفسه:

-آهٍ عليك أيها البيت، حملت همومًا لا يتجشّمها مئة شخص، ولكن تحملناها جميعًا و كبرنا فيك أنا وإخوتي، كم اشتقت إليك وأنت في حالتك البالية تلك رغم صعابك وآلامك التي عشتُها فيك.

وبِمُجرد دخوله للبيت ظل يبحث عن والدته الشابة التي أرهقها التعب وما إن رآها أخذ يبتسم لها بحنان وعيناه تلمعان حتىٰ بان تقويم أسنانه، فابتسمت الأم له وقالت لابنها:

•من ذا الشخص يابني؟!

•قابلته عند البيت المجاور لنا يا أمي وسيساعدني في شيء لذا أحضرته إلىٰ هنا.

فقالت للشاب:

•أهلًا ومرحبًا بكَ يابني، تفضل.

•أشكركِ يا خالة.

وفي قلبه غصةٌ من مناداته لها بخالة ولكن ما بيده حيلة، فأخذه الصبي إلىٰ غرفته التي يعلم طريقها ويحفظ كل شبر فيها، غرفة صغيرة وبسيطة بها سرير صغير بمقاس حجمه الصغير في ذاك الوقت، ومكتبٌ صغير للدراسة وعلىٰ الحائط المجاور للسرير نافذة متوسطة الحجم يتسنّىٰ لمن ينام علىٰ السرير رؤية النجوم بوضوح.

وعندما حلّ الظلامُ في ليلٍ انطفأت فيه الأنوار، وسكنت الأصوات، وترصعت النجوم السماء، وتسلل نور القمرِ من نافذة الغرفة، كان يُفكر فيما حدث معه مذ نتوئه لذا المكان حتىٰ لحظته تلك، ثمّ تَنفس الصعداء وقال لنفسه الصغيرة:

•ماذا لو قابلت شخصًا يقول لك: أنا أنت، ولكني من الحاضر، فما قولك حينها؟!

سأقول له:

• أتراني وأنَا أسقطُ في المهاوي؛ فما نصحُك من عهدٍ أنتَ به أعلمُ؟!

ثم نام وترك سؤالًا معلقًا في نفسه الكبيرة، وعند استيقاظه وجد رسالة بجانبه دونَ غيرها، ومضمونُ الرسالة يقول...

•أولًا: السّلام علىٰ قلبكَ من همٍّ، ومن غمٍّ.

فأبدأ بالقولِ المسيءِ لحاضري، فلوْ كنتَ تعلم أنّ لك دورٌ فيمَا حدث لحوّلت رسالةِ النصحِ عِتابا، فلولا فعالُك من ماضيّ ما كنتُ في كهفِ العسرِ الذي حبستُ فيه؛ كهفٌ تعلّقت علىٰ جدرانهِ الهموم، وفي سقفِه القيود، وكهفٌ اسْتطارَت في أنْحاء أرْضه الأشْواك، أتحَفْتَني في المشكلات بفعالك تِلك، فأين كان عقلُك في كلّ خَطيئةٍ انجذبْت إليها؟**!**

•وأقول بقلبٍ تمنّىٰ ترميمَ ما أفْسَد: عِشْ حياتكَ مبتعدًا عن الناس، قانِعٌ بنفسكَ، غَاضٌّ سمعَك عن قولهم، بَاغٌ لنصائحهم، فكتمان قولهم خيرٌ من نصائحَ تفْسِد، ولا تتّفق علىٰ قولٍ باطلٍ، فالحقّ حقٌ أما الغيرُ كتمانُ، وأْنَسْ جليسًا يكن رِفْدًا لرفقتهِ.

ولا تَأمَن عَلىٰ نَفسٍ تُصادِقُها

ولا صَديقٍ لا يَكْتُمُ السّرَ

واحفَظ لِعقلِكَ فِكرَهَا وعُلومِها

ولا تَجهَل بِقَلبِكَ الفَتَّانِ

أنْتَ الرّوحُ رَوحٌ بِمُفرَدها

والكُلُّ أجْمَعُ مِن خَلْفٍ وإتْيانِ

فَاسْلَمِ النَّاسَ مِن رَوْحِ وَمِنْ عَقْلٍ

تُصْبِح أسْعَدَ النّاسِ فِي مَاضٍ وَ فِي حَضَرِ

•وأختمُ بلفظٍ اجعله رفِيق دربك أبدَ الدّهر: كنْ تكلامًا في جلسةٍ؛ العلم محورُها، والجهل حاضرُها، والصمت ضيفُها، ولا تفزع لحادثةِ الليالي، سِرْ علىٰ نهجٍ لا يخاطِؤك؛ فالسيرُ في نوعه نوعانِ: إما سيرٌ يجازيكَ، وإما سيرٌ يعازِيك، فإما تكنْ خيرًا تُجزىٰ لفعلكَ، أو شرًا فتُعزّىٰ لمعصيتِك.

"فيا نفسي الماضية شفِقت عليكِ جوارِحي، فلا تكوني خطأً لمرّتينِ"

وتَمّتِ الرّسالة بِحمدِ الله...

|| بِقَلمِ •لُجٌّ.